آيات المحبة وارتباطها بسياق سورة آل عمران

دراسة موضوعية

إعداد

د. سلطان بن فهد بن علي الصطامي

الأستاذ المشارك في قسم القرآن وعلومه بكلية الشريعة

جامعة القصيم

abo.40fs@gmail.com

ملخص البحث

البحث دراسة قرآنية موضوعية وسُمت بـ: "آيات المحبة وارتباطها بسياق سورة آل عمران – دراسة موضوعية". تحوي جمعًا مِنَ الآيات القرآنية المتعلقة بآيات المحبة في سورة «آل عمران»، والتي اعتمد الباحث على منهج الاستقراء والجمع والتحليل، وبيان أوجه ارتباطها بسياقات السورة ومضامينها. وقد جاءت الدراسة على أربع عشرة آية، كلُّها تتحدث عن المحبة بأنواعها مِنْ خلال السورة. فخلُصت الدراسة ببيان أوجه المحبة في السورة وتعدد أنواعها، وظهور الارتباط الوثيق بين المحبة وموضوعات السورة على جهة العموم، فهناك المحبة الربانية وما تتصل بها مِن أوصاف؛ كـ: التوكل والإحسان والتقى والصبر، والمحبة البشرية وما يتعلق بها مِن حب المال والنفس والشهرة. وتُعتبر هذه السورة مِن أوسع السور كلامًا عن قضية المحبة، وهي بوابة لدراسة بقية آيات المحبة مِن خلال بقية السور القرآنية.

مِفتاح الكلمات: المحبة، الطاعة، الود، الفرح.

مقدمة

الحمد لله فاطرِ السموات والأرض، جعل الملائكةَ رسلًا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ثم الصلاةُ والسلام على أورع خلق الله نبيّنا محمد ﷺ، وأزهدهم وأتقاهم سلوكًا وعملًا.

القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه وموضوعاته الجليلة يجول بعقل المسلم في كل ميادين العلم والمعرفة، وينقله في شتى العلوم مِن عقيدة وفقه وحكم شرعي، وسلوك إسلامي وأدب رفيع وموعظة حسنة وقصة وعبرة، تختلف أبعادها ومقاصدها حسب طبيعة القالب الذي يدور حوله الحديث والخطاب، لتفتح أمام القارئ والبحث بواباتٍ ومسالكَ ومسائلَ مشتركة ومتداخلة بين القضايا الشرعية العامة والخاصة.

استوقفني آية مريم عند حديثها عن المحبة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦]، وتجعلني أسبح في فكر واسع، وأسأل نفسي: لمن تكون هذه الآية؟ وما صفاتهم؟ فقادني هذا الشعور للبحث عن هذا الموضوع الكبير، فوجدت سورة «آل عمران» إحدى المنعطفات التي عشت في ظلالها أيامًا ولحظات تأمل ونظر، وبعد أن **قرأت فيها آية المحنة، وهي قوله تعالى:** ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران:٣١]، ثم صعّدت النظر فيها كرة أخرى؛ فوجدتها مدخلًا رئيسًا في موضوع المحبة وما يتعلق بها مِن مسائلَ، وجمعتُ معها الآياتِ التي تتحدث عن المحبة في سورة «آل عمران»، فوقفت على اثنتي عشرة آية تدور جميعها داخل مجرة واحدة، وهي الحديث عن المحبة.

إن الحديث عن المحبة باعتبارها صفةً للرب سبحانه، وصفةً جبلية بين البشر في محبتهم لبعضهم، أو في حبهم لممتلكاتهم، باب يدعو للوقوف مع هذه السورة، والتنقيب عن مسافات التقارب بين هذه الآيات القرآنية داخل سوار هذه السورة المدنية.

فجاءت هذه الدراسة بعنوان: "**آيات المحبة وارتباطها بسياق سورة آل عمرن – دراسة موضوعية** "؛ لِتَكشف الغطاء عن هذا الموضوع؛ للقيام بجمع شتاته، وإبراز عدد مِن أوجه ملامحه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

- **أهداف الدراسة:**

١- بيان عناية سورة «آل عمران» بقضية المحبة ومتعلقاتها.

٢- دراسة صفة مِن صفات الله تعالى الثابتة له ﷻ، وهي صفة المحبة.

٣- الكشف عن ارتباط آيات المحبة الواردة في سورة «آل عمران»، الذي يُعتبر أكبر عدد مِنَ الآيات القرآنية جاء في سور القرآن كلها، مع مقاصد السورة وموضوعاتها.

- **الدراسات السابقة:**

هناك عددٌ مِنَ الدراسات حول المحبة في القرآن، مِن أبرزها:

١-«المحبة والكراهية في ضوء القرآن الكريم - دراسة موضوعية»، إيمان عواد يوسف الشرافي، الجامعة الإسلامية بغزة، ١٤٣٥هـ، رسالة ماجستير. وهذه دراسة وصفية عنيت بالتقاسيم والأنواع للمحبة دون الخوض في حقيقة الارتباط هذه الآيات في السور.

٢- «الحب في القرآن الكريم»، غازي بن محمد بن طلال الهاشمي، كتاب مطبوع، ١٤٣٥هـ.طبعة خاصة، الأردن.، وهذه دراسة شمولية عامة حول موضوع المحبة، عنيت بالتقاسيم والاستشهاد عليه.

٣- «آيات محبة الله للعباد ونفيها في القرآن الكريم - دراسة موضوعية»، للباحث: حنين عبد الرحيم عبد الصمد المفتي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ٢٠١٦م.هذه دراسة اعتمدت المنهج الاستقرائي الوصفي، وأشارت إلى الأسباب والموانع والثمرات من المحبة في القرآن، وهذا ليس داخلا في إطار دراستي، والتي تعنى بإظهار الارتباط بين المحبة ومضمونها في السورة.

٤- «معنى الحب وما تصرف عنها في القرآن الكريم - دراسة دَلالية»، محمد جوهدي، رسالة ماجستير، جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا، ١٤٣١هـ.والغرض من هذا البحث هو بيان معنى الحب، ومعرفة صيغ الحب، ومعاني الحب في القرآن.

الخلاصة: تُعتبر هذه الدراسة هي أول دراسة متخصصة في هذا الموضوع داخل سياق سورة «آل عمران».

- **إجراءات البحث ومنهجه وحدوده:**

تقوم الدراسة على الطريقة الاستقرائية التحليلية للآيات القرآنية، التي شملت الحديث عن المحبة مِن خلال سورة «آل عمران» فقط، وعملت على التالي:

١- حصر الآيات القرآنية التي شملت مفردة المحبة ومشتقاتها مِن فعل أو مصدر.

٢- بيان المعنى الإجمالي، وذلك بالرجوع إلى كتب التفسير.

٣- السعي لبيان أوجه الارتباط بين الآية القرآنية وبين مقاصد السورة وموضوعاتها.

٤- السعي في الوصول إلى نتيجة تُجسّد معالم الموضوع تحت كل مبحث بقدر الجهد.

٥- تخريج الأحاديث مِن مصادرها الأصلية والحكم عليها، مع الحرص على أن تكون مِنَ «الصحيحين» أو أحدهما.

- **خطة البحث:**

وتشتمل على: التمهيد - أهداف الدراسة – الدراسات السابقة – إجراءات البحث ومنهجه وحدوده– أربعة عشر مبحثًا.

❖ **التمهيد، وفيه أمران:**

أولًا: المحبة؛ تعريفها وأنواعها.

ثانيًا: المحبة في القرآن الكريم.

آيات المحبة مِن خلال سورة «آل عمرن»، وتحتها مبحثان:

المبحث الأول: آيات المحبة المثبتة من خلال سورة آل عمران، وتحته عشرة مطالب:

المطلب الأول: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤].

المطلب الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

المطلب الثالث: قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦].

المطلب الرابع: قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢].

المطلب الخامس: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

المطلب السادس: قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

المطلب السابع: قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٨].

المطلب الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢].

المطلب التاسع: قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

المطلب العاشر : قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٨٨].

المبحث الثاني : آيات المحبة المنفية من خلال سورة آل عمران، وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول : قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢].

المطلب الثاني: قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:٥٧].

المطلب الثالث: قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ [آل عمران:١١٩].

المطلب الرابع: قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٠].

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.

المصادر والمراجع.

التمهيد

الانطلاقة البحثية مِن موضوع جزئي مِن أجزاء سورة كسورة «آل عمران»، يحتاج مِنَ النظّار إلى صفحات وأفهام للكتابة حول ارتباط الجزء بالكل، والفرع بالأصل، فيكفي مِنَ القلادة ما أحاط بالعنق. ثم لتعلم أن الحديث عن المحبة بشكلها العام والخاص في محيط سورة معينة، يتطلب جمْعَ الشواهد والبراهين والمواقف التي تملأ العين قبل الأذن.

ولا ريب أن المحبة تنبعث مِن مُسمّى السورة «آل عمران»، وهي تلك السلالة المباركة التي جمعها الحبُّ في تكافلها للقريب والبعيد، فهذا زكريا عليه السلام يكفل مريم البتول، والحب الفطري الذي وقع في قلب مريم على ولدها مع خوفها من التهمة والعار، والحب الفطري لطلب الولد على كبر من قبل زكريا عليه السلام، ومحبة المكاثرة التي دفعت القلوب فزينت لهم النساء والبنين وغيرها، المحبة التي تكشف عن حقيقة أتباع عيسى عليه السلام مِنَ الحواريين، محبة الإنفاق مِن نفائس المال مما تحبه النفس وتهواه، المحبة التي تعصم الناس مِنَ الفُرقة والتقاتل على غير هدى، المحبة التي تدعو العبد إلى إصلاح المجتمع، المحبة التي تنصف الأعداء في الحكم عليهم، المحبة التي تُبين ولاية الله لعباده وحفظهم من الفشل وترك الجهاد، المحبة التي يتحقق بها النصر لعباده مع قلة العدد والعتاد، المحبة التي تدعو إلى المسارعة في الخيرات، المحبة التي لا تدفع العبد عن توهم التخلي عن ملازمة الطاعة بعد وفاة الصادق المختار ﷺ، المحبة التي يحصل بها تأديب العباد عند مخالفة أمر الله وأمر رسوله ﷺ يوم أحد، المحبة التي جعلها الله في قلب نبيه محمدٍ ﷺ تُجاه أصحابه وأمته، فتقوده للرفق واللين بأصحابه، المحبة التي تدفع بالصحابة للاستجابة لنداء النبي ﷺ بعد الإصابة بالجراح يوم أحد.

وسوف نستعرض مِن خلال المقدمات التالية :

أولًا: المحبة تعريفها وأنواعها:

تعريف المحبة لغةً؛ فإن أصل المحبة مأخوذٌ مِن (حبَب)، فالحاء والباء أصول ثلاثة، التي هي

بمعنى اللزوم والثبات، وأحببتُ فلانًا: جعلت قلبي مُعرضًا لحبه، لكن في التعارف وضع محبوب موضع محب"[(١)].

"والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا، وهي على ثلاثة أوجه: محبة للذة؛ كمحبة الرجل المرأة.. ومحبة للنفع كمحبة شيء ينتفع به.. ومحبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم. وربما فُسرت المحبة بالإرادة في نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وليس كذلك؛ فإن المحبة أبلغُ مِن الإرادة – كما تقدم آنفًا – فكل محبة إرادةٌ، وليس كل إرادة محبةً"[(٢)].

وقد وردت مادة (حبب) في القرآن الكريم (٨٣) مرة[(٣)].

وأما معنى المحبة اصطلاحًا: «ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرا»[(٤)] قال الكفوي : «عبارة عن ميل الطبع في الشيء الملذ، فإذا تأكد هذا الميل وقوي يُسمَّى عشقًا»"[(٥)].

والمحبة في القرآن لها استعمالاتٌ، جاءت على ثلاثة أوجه[(٦)]:

الأول: الإيثار، الثاني: المودة، الثالث: القلة.

* وإذا أردت البيان والتقاسيم حول سياقات المحبة في سورة «آل عمران»، هناك عدة أنواع:

– النوع الأول: تقسيم المحبة في هذه السورة باعتبار صيغة النفي والإثبات:

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (٢٦/٢)، والمفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ص: ١٠٥).

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني (ص: ١٠٥).

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي (ص: ٤١٨-٤١٩).

هناك دراسة عُنيت بصيغ المحبة في الآيات المكية والآيات المدنية. انظر: المحبة والكراهية في ضوء القرآن الكريم – دراسة موضوعية، إيمان عواد الشرافي (ص: ٢٦). ذكر د. خالد صناديقي (٨٢) مرة في كتابه معاني القرآن (٢٨٤/١).

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، الراغب الأصفهاني (٢٥٦).

(٥) الكليات = معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي (ص: ٣٩٨).

(٦) موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (٣١/ ٦١).

أولًا: طريقة الإثبات: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

ثانيًا: طريقة النفي: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:٥٧].

– النوع الثاني: تقسيم المحبة في السورة باعتبار المتعلق إلى قسمين:

القسم الأول: الآيات القرآنية المتعلقة بمحبة الله أو عدمها(٧):

قد ذكر الله ثمانية أصناف يُحبهم في القرآن: المتوكلين، المتطهرين، التوابين، المحسنين، المتقين، الصابرين، المقسطين، الذين يقاتلون في سبيله صفا"(٨). ذُكر في سورة «آل عمران»: المتقون والمحسنون والصابرون والمتوكلون.

وذكر الله في القرآن اثني عشر صنفًا ممن لا يحبهم: "الكافرين، كفار أثيم، المعتدين، المختال الفخور، خوان كفور، الخائنين، المفسدين، المسرفين، الفرحين، الظالمين، المستكبرين، الخوان الأثيم"(٩). والذي جاء في سورة آل عمران: الكافرون والظالمون.

القسم الثاني: الآيات القرآنية المتعلقة بالمحبة بين المخلوقين:

"لتعلم أن المحبة صفة ثابتة لله تعالى على الحقيقة، وليست مِن باب الاستعارة التبعية أو مِن باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، فكل هذا أمر ساقط، والقول بأن المحبة تقتضي الجنسية بين المحب والمحبوب– فلا يمكن أن تتعلق بالله تعالى– ساقطٌ مِنَ القول؛ لأنها قد تتعلّق بالأعراض بلا شبهة ولا جنسية بين العرض والجوهر"(١٠).

– النوع الثالث: تقسيم المحبة في السورة باعتبار النظم إلى قسمين:

القسم الأول: إذا جاءت لفظة (المحبة) في ثنايا الآية؛ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

---

(٧) يقول الهاشمي: "والكثير مِن أسماء الله الحسنى تدل على صفات الله ﷻ التي لها عَلاقة بالحب؛ مثل اسمه ﷻ: اللطيف، الرؤوف، الكريم،... إلخ". انظر: الحب في القرآن الكريم، غازي بن محمد الهاشمي (ص: ١٧).

(٨) الحب في القرآن الكريم، غازي بن محمد الهاشمي (ص: ١٧).

(٩) المرجع السابق (ص: ٢٠).

(١٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (٢/ ١٢٥).

القسم الثاني: إذا جاءت لفظة (المحبة) فاصلة للآية؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦].

والفرق بينهما: أن لفظة المحبة إذا جاءت في أول الآية في مقام الشرط لِمَا بعدها، أو في مقام الوصف الذي يترتّب عليه الحكم، وأما إذا جاءت لفظة المحبة في فاصلة الآية فتُعتبر بمثابة النتيجة والحكم العام على مجريات الآية، وما تضمنته مِن لوازمَ وأحكامٍ.

أن لهذه السورة عدة مضامين، **مِنَ المضامين الرئيسة لسورة «آل عمران» على جهة الإجمال:** من أبرزها : مناظرة وفد نجران، وذم الكفار، مدح الصحابة، شهادة التوحيد، وحديث ولادة مريم، وحديث كفالة زكريا ودعائه، والنَّهي عن موالاة الكفار وأَهل الكتاب ومخالفي المِلَّةِ الإسلامية، والطَّعن على علماء اليهود، غزوة أحد "[(١١)].

وهذه المضامين مِنَ الموضوعات التي شملتها السورة يمكن الاجتهاد في بيان ارتباطها بقضية المحبة التي تدفع العبد لجلب كل ما هو نافع له عند الله تعالى؛ مِنْ ترك المعتقد الباطل مِنَ النصرانية وغيرها إلى عقيدة الإسلام، والبعد عن كل ما يُجنبه طلب الدرجة العالية عند الله.

إذًا، فلُباب القول: أن السورة جمعت أنواعًا مِنَ الحديث عن المحبة، سواءٌ كانت محبة لله تعالى أو محبة متعلقة بأوصاف على طريقة الإثبات أو النفي، وكلُّهما في محصل الكلام يثبت مسألة المحبة لله تعالى، وأنها صفة ثابتة لا يمكن تأويلها أو نفيها، والله أعلم.

ثانيًا: المحبة في القرآن الكريم:

حديث القرآن عن المحبة بابٌ جليل يتضمن الكلام عن المحبة بشتى أنواعها وسياقاتها من موضوعات تتحدث عن إثبات المحبة لله تعالى، والأوصاف التي يحبها الله، وحال المحبوبين إلى الله تعالى مِنَ الأنبياء والأولياء والأصفياء، وما قصَّه اللهُ علينا مِن قصص السابقين ممن اجتمعت لهم وصف المحبة، والحديث عن محبة العباد إلى ربهم، وهذا الحديث سواءٌ كان في السورة المكية أو المدنية.

فمن أمثلة الآيات المكية قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩].

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :"إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح كما تُلهمون، وهو يُبين

(١١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي (١/ ١٥٩).

غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته؛ فالخوف مِنَ التعذيب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التي هي الأصل، وهذا كلُّه ينبني على أصل المحبة، فيُقال: قد نطق الكتاب والسنة بمحبة العباد المؤمنين لله، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]...، **وأما محبة الرب لعبده** ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]"[(١٢)].

(١٢) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية (ص: ٧١-٦٧).

المبحث الأول

آيات المحبة المثبتة في سورة آل عمران

المطلب الأول

قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران:١٤]

أولًا: المعنى الإجمالي.

"زُيّنت لهم هذه المذكورات بما فيها مِنَ الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسُهم ومالت إليها قلوبهم، **وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين:**

قسمٍ: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارُهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خُلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها،..**والقسم الثاني:** عرفوا المقصود منها، وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده؛ لِيعلمَ مَن يُقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلةً لهم وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته"[(١٣)].

هذه الثمانية المذكورات هي مِنَ المحبوبات في حياة الإنسان عمومًا، وجعلت النفس مركبة لحبها والتعلق بها، والمكاثرة والمفاخرة والمقاتلة مِن أجلها. فالآية جاءت في مقام الإثبات لمثل هذه الملهيات.

ثانيًا: أوجه ارتباط الآية بسياق السورة.

١- أن هذه المستلذات والمحبوبات إلى النفس سببٌ ومانع عن قَبول الحق، والرجوع إليه لمن خَشِي على نفسه أن يخسر مقاعد الدنيا، ووفدُ نصارى نجران لما عرَفوا أن الرسول بهتهم بالحجة؛ خافوا على أموالهم وضيعاتهم في مجتمعاتهم، فآثروا الحياة الدنيا على الآخرة.

٢- أن هذه المستلذات بوابةٌ لزيغ القلوب عن الحق، ولذا جاء الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا

(١٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي (ص: ١٢٤).

بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

٣- أن سبب الهزيمة يوم أحد كان بتعلّق نفوس بعض الصحابة بغنائم الحرب، والقرآن كشف عن هذه الخبيئة فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

٤- أن هذه المستلذات مصائدُ للقلوب، ومطامع للانغماس في الدنيا بغير هدى، والالتجاء إلى بعض الطرق المحرمة لكسبها، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٠]، ودافعة المحبة العمياء لمثل هذه الزخارف في الدنيا.

المطلب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]

أولًا: المعنى الإجمالي:

هذه الآية خطاب لوفد نصارى نجران، أن محبتكم لله سبحانه ولعيسى عليه السلام مشروطة باتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو بشارة عيسى في الإنجيل، فإن حصل اتباع وتصديق محمد عليه السلام حصلت لكم المغفرة و الصفح والعفو عما مضى من أعمالهم (١٤).

فالآية جاءت في مقام الإثبات، وهي مخاطبة وفد نصارى نجران، وهذه الآية تُسمَّى بآية المحنة(١٥).

ثانيًا: أوجه ارتباط الآية بسياق السورة:

١- أن محبة عيسى عليه السلام ليس أمرًا مُصطنعًا أو دعوات واهية وأماني كاذبة، بل لا بد أن تُحقق هذه المحبة بموجب الشرط الشرعي لذلك، وهو الاتباع لدعوة النبي ﷺ، فالله سبحانه أنزل هذا القرآن مُهَيْمِنًا على الكتب السابقة.

٢- أن دعوات الأنبياء مُكملة بعضها للبعض الآخر، فكمال المحبة لنبي مِنَ الأنبياء عليهم السلام تستوجب محبة النبي الآخر، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]، فالإيمان بجميع الرسل هو مِن جملة عقيدة المسلمين، فالمحبة لا تتجزأ أو تتبعض في حق نبي دون آخر.

٣- أن هذه الآية أصلٌ في صدق وصحة المعتقد، يقول ابن كثير: "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَنِ ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في

---

(١٤) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٦/ ٣٢٤) بتصرف .

(١٥) قالَ بَعْضُ السَّلَفِ: ادَّعى قَوْمٌ مَحَبَّةَ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ المِحْنَةِ فتلا الآية. انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٢٢).

نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله"[١٦].

٤-الآية جاءت في موضع الانتقال مِنَ الترهيب إلى الترغيب، "انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن. والمناسبة أن الترهيب المتقدم خُتم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والرأفة تستلزم محبة المرؤوف به الرؤوف، فجعل محبة الله فعلًا للشرط في مقام تعليق الأمر باتباع الرسول عليه مبنيٌّ على كون الرأفة تستلزم المحبة، أو هو مبنيٌّ على أن محبة الله أمر مقطوع به مِن جانب المخاطبين، فالتعليق عليه تعليقُ شرط محقق، ثم رتب على الجزاء مشروط آخر وهو قوله: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لكونه أيضًا مقطوع الرغبة من المخاطبين"[١٧].

٥- أن الله سبحانه ربط محبته باتباع رسوله ﷺ، فالاتباع للرسل هو مِنْ لوازم المحبة لله تعالى، فمَنْ أخَلّ باللازم ذهب عنه حقيقة الملزوم. "فجعل المحبة في اتباعه، وجعل جزاء اتباعه محبته لعباده، وهي أعلى الكرامة"[١٨].

(١٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٢).

(١٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٣/ ٢٢٤).

(١٨) تفسير التستري، التستري (ص: ٧٩).

المطلب الثالث

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦]

أولًا: المعنى الإجمالي:

يقول الله أن حقيقة الوفاء بعهد الله الإيمان بمحمد ﷺ والتصديق بما جاء به، ولزوم التقوى بجميع متطلباتها، " ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، يعني: فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه، فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم، ويطيعونه فيما أمرهم به"(١٩).

والآية إثبات لمحبة للمتقين، وبيان طبيعة بني إسرائيل في تعاملهم مع أموال الأميين، وكيف أنهم يستبيحونها لأنفسهم!

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. التلازم بين الوفاء بالعهد والقيام به على أكمل صورة مِنَ الاعتقاد بصحة ما يتملكه دون ما يتملكه غيره، وأن هناك تلازمًا بين حقيقة التقوى الجالبة للمحبة وبين الوفاء بالعهد. "فلم يوفِ بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأُمّيون قد عُرفوا بوفاء العهود وبتقوى الله وعدم التجَرُّؤ على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أُعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون: ليس علينا في الأميين سبيل"(٢٠).

٢. أن المحبة الشرعية التي أوقعها الله لعباده مرتبطةٌ بشرط وعلامة تظهر حقيقة المحبة، فإن للمحبة الربانية أعمالًا وعلاماتٍ جاءت الشريعة ببيانها والسعي في طلب تحصيلها. قال تعالى في حق بعض أهل الكتاب ممن أقام الشريعة كما أمره الله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥].

٣. أن من صور الوفاء بالعهد في حق الأمم والمجتمعات: أن تقوم بواجبها الشرعي مِن

(١٩) جامع البيان، الطبري (٦/ ٥٢٦).

(٢٠) تيسير الكريم الرحمن، السعدي (ص: ١٣٥).

التصديق بالنبوة والرسالات، وليس في قتل الأنبياء، والذي يُعتبر منتهى الفساد ومَعْلَمًا مِن معالم الكفر والعناد، فكيف يكون لمثل هؤلاء حظوة بالمحبة عند الله أو عند رسله وهم غافلون عن تحقيق التقوى في نفوسهم ؟! ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢].

٤. أن التناقض في القيام بالحقوق والأوامر الشرعية نابعٌ مِن ذات النفوس الدنيئة وليس مِن أصل المعتقد الشرعي؛ فإن وجود التباين في طبيعة تعامل أهل الكتاب في حقوق الناس – فمنهم مَن يُؤدي المال ولو كان كثيرا، ومنهم مَن يمنع ذلك ولو كان قليلًا – يدل على أن القضية هي هوى مطاع وليس شرعًا متبعًا؛ فتبيّن أن المراد هو ملازمة الحقد والحسد وليس بحثًا عن حق وحقيقة، فمَن كانت تلك نفوسهم فأين منبع المحبة في قلوبهم؟!

يقول ابن عاشور :"والمناسبة بيان دخائل أحوال اليهود في معاملة المسلمين الناشئة عن حسدهم، وفي انحرافهم عن ملة إبراهيم مع ادعائهم أنهم أولى الناس به، فقد حَكَى في هذه الآية خيانة فريق منهم"[٢١].

(٢١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٣/٢٨٥).

المطلب الرابع

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢]

أولًا: المعنى الإجمالي:

يخبر المولى سبحانه أن إدراك البر بمفهومه العام والشامل والذي تدخل فيه جميع الطاعات لا يتأتى حتى ينفق العبد نفائس أمواله وخصوصا ما تعلق القلب به دون غيره، "فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة. ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره، وأنه ينقص مِن بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مُثابًا عليه العبد، سواءٌ كان قليلًا أو كثيرًا، محبوبًا للنفس أم لا؟"(٢٢).

وهذه الآية الشريفة جاءت في ارتباط الإنفاق بالمحبة؛ فإن النفس كلما تعلقت بالمال كان إنفاق المال أشدَّ صعوبة وأوثق صلة بالقلب.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن الإنفاق في سبيل الله – وخاصة مما تتعلّق به النفس – هو مِن أشد الشيء منازعة لمتعلقات النفس، فكلما كان العمل يتعلق بالنفس كان الأجر فيه أعظمَ، فالجهاد بالنفس مِن أعظم غاية الجود، وبعده الجهاد بالمال وبذله في سبيل الله، ولهذا كان هذا العمل مِن أبواب المسارعة للخيرات، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

٢. أن محبة المال هو أمر جبلي وركيزة فطرية جُبلت عليها الأنفس، كما جاء في قوله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان مِن مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(٢٣). وهذا مُصَدِّقٌ ما جاء في أول السورة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ

(٢٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي (ص: ١٣٨).

(٢٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ فِتْنَةِ المالِ، (٨/ ٩٢) رقم (٦٤٣٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، (٢/٧٢٥) رقم (١٠٤٨).

ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤]، فإنه إذا حصلت المنازعة بين محبة المال ومحبة ما يريده الله؛ تعين جهاد النفس الذي تحصل به المسابقة والمسارعة إلى الله تعالى.

٣. أن مَن عرف حقيقة المال والإنفاق؛ دفعته نفسه عن البخل والشح فيه، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠].

٤. أن الإنفاق للمال يدعو العبد أن يطيب مطعمه ومشربه؛ فإن الله لا يقبل من المال إلا ما كان حلالًا؛ ولذا جاء النهي في السورة عن الربا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٣٠]، ولأن طريق الربا والتعامل به هو سبيل محاربة لله ورسوله ﷺ، وهو سبيل مِن سبل الشيطان التي تمحق بها بركات المال، وتذهب بنمائه وطهره.

المطلب الخامس

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]

أولًا: المعنى الإجمالي:

يخبر المولى سبحانه في سياق الحديث عن أهل التقوى، أنهم الذين ينفقون في السراء والضراء، "إمَّا في صرفه على محتاج، وإما في تقوية مُضعِف على النهوض لجهاده في سبيل الله. وأما قوله: ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ فإنه يعني: في حال السرور، بكثرة المال ورخاء العيش، والسراء"، [٢٤]، هذه الآية جاء ذكر المحبة فيها في مقام إثبات المحبة للمحسنين الذين جاء ذكرهم في القرآن والسنة.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن المحبة الربانية هي قريبة مِنَ المحسنين، فإن مَن أحسن لعباد الله أحسن الله له العمل والجزاء، فإن زكريا عليه السلام لَمَّا تكفّل برعاية مريم البتول؛ جُزِي بالولد على كِبر سنه ورقة عظمه.

٢. أن الإحسان نوعان، وكلُّهما داخل في الآية: الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى المخلوق. يقول السعدي: "والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي ﷺ بقوله: "**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**"[٢٥]، وأما الإحسانُ إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل

---

(٢٤) جامع البيان، الطبري (٧/ ٢١٣).

(٢٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ، (١/ ١٩) رقم (٥٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١/ ٣٧) رقم (٨).

في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمَن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده"[٢٦].

٣. أن الآية سِيقت في مجرى الحديث عن المتقين الذين أُعدت لهم الجنة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فالإنفاق في جميع الأحوال وكظمان الغيض والعفو عن الناس كلُّها بمجموعها موجبة لمحبة الله تعالى.

"وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس سهل ما دونها لديها، وبجماعها يجتمع كمال الإحسان؛ ولذلك ذيَّل الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأنه دالٌّ على تقدير أنهم بهذه الصفات محسنون، والله يحب المحسنين"[٢٧].

٤.أن المحبة مِنَ الله تعالى لعبده تكون بقدر التعلق بطلب رضا الرب سبحانه وتعالى، والتخلي عن حظوظ النفس، والتحلي بكمال الخصال الحميدة التي أرشد الوهاب سبحانه لفعلها والقيام بها، فالجزاء من جنس العمل.

(٢٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي (ص: ١٤٨).

(٢٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٩١).

المطلب السادس

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]

أولًا: المعنى الإجمالي:

يخبر ربنا سبحانه عن حال أولئك الأنبياء الذين يقاتل معهم الأتقياء من عباده، ومع ذلك لم يحصل منهم الضعف أو الهوان مما حصل عليهم من الجراح، وما ضعفوا عن الجهاد، بل صبروا على قتال أعدائهم"[٢٨].

وهذه الآية الشريفة جاءت في مقام إثبات محبة الله تعالى للصابرين على القتال، الذين أثنى الله عليهم في مواضعَ كثيرةٍ مِن كتابه، وكذلك في سنة رسوله ﷺ.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن القرآن يُقدم أنموذجًا لأقوام ورجال قدموا أنفسهم دفاعًا عن دينهم ونبيهم؛ ليكونوا أُسوة لأمة محمد ﷺ. يقول الرازي: "إن المقصود مِن هذه الآية حكايةُ ما جرى لسائر الأنبياء لتقتدي هذه الأمة بهم"[٢٩]، ويقول ابن عاشور: "كأين من نبي قاتل عبرة بما سلف مِن صبر أتباع الرسل والأنبياء عند إصابة أنبيائهم أو قتلهم، في حرب أو غيره، لمماثلة الحالين. فالكلام تعريضٌ بتشبيه حال أصحاب أحد بحال أصحاب الأنبياء السالفين؛ لأن محل المثل ليس هو خصوص الانهزام في الحرب، بل ذلك هو المُمَثّل. وأما التشبيه فهو بصبر الأتباع عند حلول المصائب أو موت المتبوع"[٣٠].

٢. المحبة الربانية لها حيثيات تقوم عليها مِنَ العمل والبذل والتضحية؛ طلبًا لمرضاة الله تعالى، فالصبر على طاعة الله تعالى وبذل المُهَج والنفوس في ذلك هو مِن أصدق الأعمال، وأعزها شرفًا عند الله تعالى.

---

(٢٨) محاسن التأويل، القاسمي (٢/ ٤٢٤) بتصرف.

(٢٩) مفاتيح الغيب، الرازي (٩/ ٣٨٠).

(٣٠) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ١١٦).

٣. القرآن يتحدّث عن مقومات الصبر وملازمته المستجلبة للمحبة الإلهية، "الوهن: الانكسار بالخوف، الضعف: نقصان القوة، الاستكانة: الخضوع. ومعناه: فلم يهنوا بالخوف, ولا ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع. وقال ابن إسحاق: فما وهنوا بقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم، ولا استكانوا لِمَا أصابهم"(٣١).

٤. عموم محبة الله تعالى لعباده الذين يتصفون بمثل هذه الصفات التي جاءت في الآية، فليست خاصة بطائفة دون أخرى، فكل مَن تحقّق فيه هذه الصفات؛ استحق أن ينال محبة الله تعالى التي علقها بهذا الوصف، وهو الصبر؛ ولذا فهم الصحابة رضي الله عنهم الدرس جيدًا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وهذه الآية نزلت ورسول الله ﷺ بين أصحابه حي يُرزق، فلما مات وفزع بعض الصحابة، قرأها أبو بكر ﷺ على الصحابة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "**ألا مَن كان يعبد محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت**"(٣٢).

(٣١) النكت والعيون، الماوردي (١/ ٤٢٨).

(٣٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجنائز، بَابُ الدُّخُولِ عَلَى المَيِّتِ بَعْدَ المَوْتِ إِذَا أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ، (٥/ ٧) رقم (٣٦٥٦).

المطلب السابع

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٨]

أولًا: المعنى الإجمالي:

يخبر الله عن أولئك الذين حققوا أمر الله بالدعاء والاستجابة لأمره بالنصر والغنيمة.

"فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومِنَ الإحسان: أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء الموصوفين"(٣٣).

وهذه الآيةُ جاءت في مقام الإثبات لصفة مِنَ الأوصاف التي يحبها الله تعالى، وهي صفة الإحسان.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة.

١. أن هذه الآيةَ جاءت نتيجة لتحصل أمرين سابقين مِن صفات النفي والإثبات في حق أولئك المجاهدين، فالمحبة متحصلة مِن اجتماع تلك الأوصاف، "واعلم أنه تعالى مدح هؤلاء الرّبِّيُّون نوعين: أولًا: بصفات النفي، وثانيًا: بصفات الإثبات، أما المدح بصفات النفي فهو قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ولا بد مِن الفرق بين هذه الأمور الثلاثة، ثم إنه تعالى أتبع ذلك بأن مدحهم بصفات الثبوت فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧]"(٣٤).

٢. أنه بقدر البلاء تتحصل المراتب العالية وشرف العطاء، "﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: النصر والظفر والعاقبة، ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: جمع لهم ذلك مع هذا، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾"(٣٥). وبقدر البلاء تظهر معادن المحبة، وما قصة الذبيح عنا ببعيد.

---

(٣٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي (ص: ١٥١).

(٣٤) مفاتيح الغيب، الرازي (٩/ ٣٨١).

(٣٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٣١).

٣. أن الآية جاءت مُذَيّلة بهذه الجملة الاسمية؛ للدَّلالة على العموم. "وجملة: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذييلٌ؛ أي: يحب كل محسن، وموقع التذييل يدل على أن المتحدث عنهم هم مِنَ الذين أحسنوا، فاللام للجنس المفيد معنى الاستغراق، وهذه مِن أكبر الأدلة على أن (أل) الجنسية إذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية، وأن الاستغراق المفاد مِن (أل) إذا كان مدخولها مفردًا وجملة سواء"(٣٦).

٤. أن مِن بديع المناسبات في هذه السورة، التي حصل فيها الهزيمة لمعسكر الإسلام يوم أحد إلا أنه حصل فيها مكاسبُ أخروية أراد الله سبحانه أن تظهر للصحابة ولمن بعدهم، وأن حسن القصد والطلب لمرضاة الله هو السبيل لمحبته والسعي في محبوبات الله تعالى، فإن مَن رَضِي الله عنه فاز بمحبته، وهذا أقصى غاية المؤمل عند العبد، ولا يضره بعد ذلك مِن فقد جسد أو مال أو متاع.

(٣٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ١٢١).

المطلب الثامن

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٢].

أولًا: المعنى الإجمالي:

هذه الآية في عرض ذلك المشهد يوم أحد لما حصل النصرة والغلبة في أول الأمر للمسلمين، وفرحوا بما تحصل لهم من النصر والغنيمة وهذا مما تحبه النفس وتألفه، فلما وقعت المخالفة والفشل بترك أمر رسول الله لأماكنهم طلبا للدنيا، انقلبت موازين المعركة وحصل الابتلاء والهزيمة للمسلمين، ثم حصل العفو من الله لعباده.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١- أن هذه المحبة جاءت في مضمونها الحقيقي، الذي يتضمن الاتباع و الانقياد لأمر رسول الله، فكان ظهور المحبة تحت هذا القيد والشرط، فلم حصلت المخالفة تحول هذا الفرح غما بعد غم. يقول القاسمي:" فائدة قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ التنبيه على عظم المعصية، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد، كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام"[(٣٧)].

٢- أن المحبة الربانية هي قرينة الاتباع و الانقياد لشرع الله، فهذه المعركة جمعت أسباب النصر وعوامل الهزيمة، فالنصر والغلبة الذي تحبه النفوس وتطلبه هو نتيجة الالتزام بالأمر الشرعي، و الهزيمة هو محصل المخالفة والفرقة والتنازع في أمر الشارع سبحانه.

٣- أن المحبة التي ينالها العبد بتوفيق الله وما يترتب عليها من الفضل والكرم الرباني، يستوجب دوام الثبات على المأمورات وترك المنهيات، فلا يغتر العبد بحصول أول المحبوبات إلى

(٣٧) محاسن التأويل (٢/ ٤٣٠).

النفس، مما قد يسلبها بعد الفرح وهذا أشد واشق على النفس.

٤- أن لله سنن وقواعد لا تتبدل ولا تتغير، فوعد الله للمؤمنين بما تحبه نفوسهم من العلو و النصر حق ثابت لا مرية فيه ، إنما يقع التخلف عن الوعد من قبول النفوس الضعيفة، التي تطلب حظها من الدنيا دون النظر في الأخرة. يقول القرطبي عن حال أولئك الرماة الذي خالفوا أمر النبيﷺ :" ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام" [٣٨].

(٣٨) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٣٧).

المطلب التاسع

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]

أولًا: المعنى الإجمالي:

وهذه الآية جاءت بالحديث عن صفة مِن صفات نبيّنا الكريم ﷺ، وحسن معاملته لأصحابه وتحمل ما يحصل عنهم من خطأ أو تقصير، فهو الرحيم بأمته فليس بفظ ولا غليظ، وهذه الآية سِيقت في مقام الإثبات للمحبة، وجاءت بوصف مِنَ الأوصاف الرفيعة في القرآن؛ وهو التوكل على الله تعالى، الذي شاع ذكرُه في القرآن والسنة النبوية.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن حسن الخُلق مع الخَلق وحسن الكلام معهم ومشاورتهم في أمر العامة والخاصة؛ مِمَّا يجلب المحبة في نفوسهم، ويبعث في النفس الأمل وحسن النظر والتفاؤل بحسن العاقبة، وهذه كلُّها مِن بواعث التوكل على الله تعالى، فإن الشؤمَ مِن مداخل ضعف التوكل على الله تعالى، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

٢. أن المحبة التي يطلبها الله تعالى مِن عباده هي مِن مقدور العبد، ومِن حسن صنيع العبد بنفسه، فإن العبد كلَّما توكل على الله وسلَّم أمره لربه بعد فعل الأسباب؛ علم أنما قُدّر فهو الخير له. وكلما حقَّق العبد الإيمان في نفسه صرف الله عنه كيد الأعداء ومكرهم، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:١١١].

٣. أن سياق التوكل في الآية جاء بعد مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في الخروج مِن عدمه لمقابلة المشركين، فكان جملة مِنَ الصحابة أحبوا أن يخرجوا للقتال خارج المدينة(٣٩)؛ إظهارًا للشجاعة، ومع هذه المشورة والهزيمة تبين أن هذه القضية لا تناقض التوكل الذي يحبه الله تعالى،

(٣٩) ذكر ذلك ابن اسحاق [السيرة النبوية، ابن هشام (٩٣/٣)]، أو كان رأيه في الخروج موافقة.

فليس على العبد إلا فعل الأسباب والوسائل التي يدفع بها الشر عن نفسه، ومِن حقيقة التوكل الرضا بقضاء الله وتقديره على العباد، وهذا مما يزيد المحبة بالله تعالى.

٤. أن في الآية ارتباطًا وثيقًا بين حسن الخلق وحسن التوكل على الله، فإن مِنَ الناس مَن إذا فاجأه القدر بما يكره ساء خلقه وخبث لسانُه، والعكس بالعكس.

"فإنه يعلم أن الحوادث الأرضية مستندة إلى الأسباب الإلهية، فيعلم أن الحذر لا يدفع القدر، فلا جرم إذا فاته مطلوب لم يغضب، وإذا حصل له محبوب لم يأنس به؛ لأنه مُطّلع على الروحانيات التي هي أشرف مِن هذه الجسمانيات، فلا ينازع أحدًا من هذا العالم في طلب شيء مِن لذاتها وطيباتها، ولا يغضب على أحد بسبب فوت شيء مِن مطالبها، ومتى كان الإنسان كذلك كان حسن الخلق، طيب العشرة مع الخلق"[٤٠].

٥. أن مِن كمال التوكل على الله تعالى التسليمَ لأمر الله تعالى، وهو ما حصل مِنَ الرؤيا، كما جاء عن أبي موسى رضي الله عنه، – أرى – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**رأيت في رؤياي أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا، والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد**»[٤١].

٦. أن السورة تكَلَّمَت عن صورة مِنَ التراجع الذي حصل من المنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧]. وكذلك ما كاد يحصل في صفوف بعض الصحابة مِنَ الأنصار؛ وهم بنو سلمة وبنو حارثة[٤٢]، ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل

(٤٠) مفاتيح الغيب، الرازي (٩/ ٤٠٦).

(٤١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المناقب، بَابُ عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ، (٥/ ١٠٢) رقم (٤٠٧٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، (٤/ ١٧٧٩)، رقم (٢٢٧٢).

(٤٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، بَابُ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، (٥/ ٩٦) رقم (٤٠٥١).

عمران:١٢٢].

فإن هاتين الصورتين مما يدل على وجود ضعف في العزيمة، ونقص في باب التوكل على الله تعالى في فعل الأسباب، ولذا رد عليهم القرآن هذا الاعتقاد الفاسد بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

المطلب العاشر

قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٨٨]

أولًا: المعنى الإجمالي:

هذه الآية كثرت فيها الأقاويلُ في بيان المعنى بين السلف، وسوف نقف على المعنى الذي يقوم عليه مقصود الدراسة. يقول ابن عاشور: "والخطاب لكل مَن يصلح له الخطاب، والموصول هنا بمعنى المُعَرّف بلام العهد؛ لأنّ أُريد به قوم معينون مِنَ اليهود أو المنافقين، فمعنى ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾: أنهم يفرحون بما فعلوا مما تقدم ذكرُه، وهو نبذ الكتاب والاشتراء به ثمنًا قليلًا، وإنما فرحهم بما نالوا بفعلهم مِن نفع في الدنيا، ومعنى ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أنهم يحبون الثناء عليهم بأنهم حفظة الشريعة وحراسها والعالمون بتأويلها، وذلك خلاف الواقع. هذا ظاهر معنى الآية. وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس أنهم أُتوا إضلال أتباعهم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأحبوا الحمد بأنهم علماء بكتب الدين"(٤٣).

وهذه الآية الكريمة سِيقت في بيان طلب المحبة بين الناس، وهي التي تقوم على أساس باطل وكذب ودجل مِنْ هؤلاء اليهود أو المنافقين.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن القرآن يدعو إلى معرفة مصادر المحبة الشرعية، والتي تقوم على العمل الصالح ونحوه. "هذه الآية وإن كانت محمولة على الكفار لما تقدم، ففيها ترهيبٌ للمؤمنين عما ذم عليه أهلها مِنَ الإصرار على القبائح والفرح بها، ومحبة المدح بما عرا عنه مِنَ الفضائل، ويدخل في ذلك المراؤون المتكثرون بما لم يُعطوا"(٤٤).

---

(٤٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ١٩٣).

(٤٤) محاسن التأويل، القاسمي (٢/ ٤٧٨).

"وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى؛ إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملًا صالحًا، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله؛ فإن الله تعالى لا يقبل مِنَ العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي عليه السلام أنه قال: "**قال الله – تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه**"(٤٥)، (٤٦).

٢- أن الآية تدل على جواز المدح والثناء في حق مَن قام بالأمر والنصح، كما أمر الله تعالى. "ودلت الآية بمفهومها على أن مَن أحب أن يُحمد ويُثنى عليه بما فعله مِنَ الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة؛ أنه غير مذموم، بل هذا مِنَ الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]"(٤٧).

٣. أن حقائق الأشياء ليست بما هو في الظواهر، إنما تكون بأصول العمل ومنطلقاته الصحيحة؛ فإن العمل الصالح الخالص هو موطن المحبة والثناء والبقاء دون غيره، فالرياء لا يصنع أثرًا ولا يُبقي ذكرًا، حتى ولو طارت به الركبان والخلان، فالمحبة هي هبة ربانية يضعها الله لعباده المخلصين في نفوس عباده، قال تعالى في حق موسى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ﴾ [طه:٣٩].

هذه عشرة مطالب جميعها جاء بصيغة الإثبات للحبة سواء كان متعلقا بالله سبحانه أو بين البشر أنفسهم.

(٤٥) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، (٤/ ٢٢٨٩) رقم (٢٩٨٥).

(٤٦) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية (ص: ٥٩).

(٤٧) تيسير الكريم الرحمن، السعدي (ص: ١٦١).

المبحث الثاني

آيات المحبة المنفية من خلال سورة آل عمران

المطلب الأول

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢]

أولًا: المعنى الإجمالي.

الآية بيان لعلامة المحبة الربانية ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، فإذا حصل التولي والإعراض الكامل ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فالنتيجة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: لا يحبهم[٤٨].

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ " بَيّن أَن محبته فِي طَاعَته وَطَاعَة رَسُوله، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فَإِن قَالَ قَائِل: لِمَ كرَّر اسْم الله مرَارًا، وَكَانَ يَكْفِيهِ أَن يَقُول: فَإِنَّهُ لَا يحب الْكَافرين؟ قيل: هُوَ على عَادَة الْعَرَب؛ فَإِن مِنْ عَادَتهم أَنهم إِذا عظموا شَيْئًا كرَّروا ذكرَه"[٤٩].

فتجلَّى مِن هذه النصوصِ أن الطاعة هي مِنْ خصائص أهل الإيمان الذين يحبهم الله تعالى، بخلاف أهل الكفر الذين ناكفوا طريق الحق والهدى. وهي في مقام النفي لبيان عدم محبته للكافرين.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١- القرآنُ يعود باليهود والنصارى لأصل الطاعة الحقيقة مِن لدن نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧]. فإذا اختلّ أصل الطاعة في حق إبراهيم عليه السلام، وهو أصل الأنبياء فما دونه، تبع له في ترك طاعته، ومِن لوازم الطاعة عدمُ المحبة الشرعية التي تجعلهم ينقادون إلى الحق المبين، بل إن اليهود والنصارى تبع لهم؛ لم يحققوا الاتباع لدعوة موسى عليه السلام، وأن التعلق بهذه المحبة المزيفة إنما هو ضربٌ مِنَ الخبل.

---

(٤٨) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (١/ ٢٤٩) بتصرف.

(٤٩) تفسير القرآن، السمعاني (١/ ٣١١).

٢- وجودُ التلازم بين طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فمَنْ أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، ولا سبيلَ لطاعة الله وتصديقه إلا بالإيمان بهذا الرسولﷺ، فمَنْ كفر فإن الله لا يحب الكافرين؛ ولذا كان مِن طاعة الرسول ﷺ تقديمُ محبته على محبة جميع الخلق، قال ﷺ: "**ثلاثٌ مَن كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما**"(٥٠). يقول التستري: "ما علامة المحبة؟ قال: معانقة الطاعة ومباينة الفاقة"(٥١).

٣-أن الآية جاءت بنفي محبة الكافرين، وفي هذا إثباتٌ للمحبة لأهل الإيمان؛ لأن النفي المحض ليس محمودًا في صفات الله، فكل نفي يتضمن إثباتًا لضده، "لم يقل: العاصين، بل قال: الكافرين، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين وإن كانوا عصاةً"(٥٢).

(٥٠) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١/ ١٢) رقم (١٦)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال مَنِ اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (١/ ٦٦) رقم (٤٣).

(٥١) تفسير التستري، التستري (ص: ٤٥).

(٥٢) لطائف الإشارات، القشيري (١/ ٢٣٦).

المطلب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:٥٧]

أولًا: المعنى الإجمالي:

يخبر المولى عن كرمه لعباده المؤمنين بإعطائهم الأجور العظيمة، وهذا من كمال فضله على عباده "فقال: إني لا أحبّ الظالمين، فكيف أظلم خلقي؟ "[٥٣]. فعدم محبته للظالمين لبيان أن العدل والعطاء الرباني هو صفة من صفته سبحانه.

هذه الآية جاءت في مقام النفي للمحبة، وفي ثنايا الحديث عن موقف أهل الكتاب مِن عيسى عليه السلام.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن منهج الأنبياء عليهم السلام قائم على أساس الاتباع والطاعة لله تعالى، وعدم المخالفة والعناد، وهذا الأمر يجعل الناس على فريقين: إما موحدٌ ناج أو جاحد هالك، فإن مِن تمام الاتباع والمحبة لنبي الله عيسى عليه السلام أن جعل له الحواريين، ولما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء ألقى شبهه على أحد أتباعه، **وهذا دليل محبة وتعظيم الحواري لعيسى** عليه السلام.يقول سبحانه: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥]. "عن ابن عباس، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين، يعني فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة، بعد أن آمن بي، قال: ثم قال:أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنا...، فقال: هو أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء... وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس"[٥٤].

٢. أن مِن عدل الله سبحانه أن يجازي المؤمن بعيسى عليه السلام بالحسنى؛ لتصديقه واتباعه

---

(٥٣) جامع البيان، الطبري (٦/ ٤٦٦).

(٥٤) تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ٣٩٨).

لهديه، وهذا مما قرَّره القرآن؛ ليَعْرف نصارى نجران أن شرائع الأنبياء شرائعَ صحيحة وثابتة في وقتها، ولا يجوز الخروج عنها، وأما بعد الإسلام فهو الدين الناسخ للأديان السابقة كلها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقال قبلها سبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

٣. أن القرآنَ يُصور الظلم بأمثال تحكي صورة ذاك الظلم الذي يوجب العقوبة وعدم المحبة لأصحابها، ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١١٧]. "فكذا ريح الكفر إذا أصابت حرث إنفاق قومه تهلكه، فصار الظلم ريحًا لحصوله مِن هوى النفس ذات برودة شديدة، لكونه ظلمَ الكفر الذي هو الموت المعنوي فأهلكته"(٥٥).

٤. أن مِن عدل الله سبحانه أنه أقام الحجج والبراهين على صدق هذا النبي ﷺ وصدق دعوته، وهو الموجب لمحبة الله لعباده، وأنها لا تخالف دعوة عيسى عليه السلام، ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

٥. أن السورة أشارت إلى أن الأجر مترتب على عظم العمل الذي يقوم به العبد سواء كان ذكرا أو أنثى. يقول تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٩٥].يقول السعدي:" فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملا موفرا، ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب"(٥٦).

(٥٥) محاسن التأويل، القاسمي (٢/ ٣٩١).

(٥٦) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٦٢).

المطلب الثالث

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩]

أولًا: المعنى الإجمالي:

الآية تخبر عن حال بعض الأنصار مع نفر من اليهود قبل إسلامهم، فلما وقع الإسلام للأنصار حصل البغض من اليهود، فلا تحبوهم وهم يكفرون بكتابكم، وإذا لقوكم تمنوا الانتقام منكم كمن يعض أنامله حنقا عليكم.

"وفي معنى محبة المؤمنين لهم أربعة أقوال: **أحدها:** أنها الميل إليهم بالطباع، لموضع القرابة والرضاع والحلف... **والثاني:** أنها بمعنى الرحمة لهم؛ لِمَا يفعلون مِنَ المعاصي التي يقابلها العذاب الشديد،.. **والثالث:** أنها لموضع إظهار المنافقين الإيمان،.. **والرابع:** أنها بمعنى الإسلام لهم، وهم يريدون المسلمين على الكفر"(٥٧).

فعُلم أن هذه الآيةَ جاءت لبيان الخطأ الواقع في المحبة التي وضعها أهل الأيمان لأهل الكتاب لأي سبب كان مِنَ الأسباب التي تعرّض لها أهل التفسير؛ إما مِن جهة الميل القلبي أو القرابة، وإما للانخداع بصور الإيمان المزيفة أو غيرها مما لا يصلح أن يكون سببًا مُوجِبًا للمحبة.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن المحبة تجلب المحبة، وهذه هي حقيقة الحب، وأما إذا كانت المحبة مِن طرف لطرف آخرَ يبادلك العداوة؛ فهذا خلط في المفاهيم وخطأ في التصور.

يقول ابن عاشور: "فالمؤمنون يحبون أهل الكتاب، وأهل الكتاب يبغضونهم، وكل إناء بما فيه يرشح، والشأن أن المحبة تجلب المحبة إلا إذا اختلفت المقاصد والأخلاق"(٥٨).

٢. حقائق القرآن هي التي تكشف حقائق المحبة الشرعية القائمة على حقيقة الولاء

(٥٧) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (١/ ٣١٩).

(٥٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٦٥).

والبراء، ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

٣. أن الحديث عن أهل الكتاب جاء في صورٍ متعددةٍ؛ لتكشف هوية هؤلاء المعرضين عن التحاكم لشريعة الإسلام والإذعان لها، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران:٢٣].

٤. أن أهل الكتاب يُقَعّدون لمعتقداتهم على أسس باطلة، فهم – في زعمهم – شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه؛ فلذا قالوا :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٤]. يقول النسفي: أي: غرَّهم افتراؤهم على الله، وهو قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، فلا يعذبنا بذنوبنا إلا مدة يسيرة"[(٥٩)]، فكيف لمن كان هذا حاله واعتقاده أن يُعقد له لواء المحبة والنصرة ؟!

٥. أن هذه الآيةَ جاءت في سياق الآية التي قبلها، وهو النهي عن اتخاذ المشركين والمنافقين في أمور المسلمين، "ففي هذا الأثر مع هذه الآية دَلالةٌ على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء مِن أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]"[(٦٠)]. فالصفات التي تمثلها أهل الكتاب مِن طلب الفساد لأموركم وظهور العداوة، وأن ما تخفيه صدورهم أكبر كفيلٌ بعدم الرضا عنهم، فضلًا عن محبتهم.

(٥٩) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي (١/ ٢٤٥).

(٦٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ١٠٧).

المطلب الرابع

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]

أولًا: المعنى الإجمالي:

يخبر المولى سبحانه عن جراح المؤمنين يوم أحد وما حصل لهم الابتلاء والهزيمة، وذلك لغايات متعددة منها:" إِنَّما نجعل الدَّولة للكفَّار على المؤمنين ليميَّز المؤمن المخلص ممَّن يرتدُّ عن الدِّين إذا أصابته نكبة. والمعنى: ليعلمهم مشاهدةً كما علمهم غيبًا، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ أَيْ: ليكرم قومًا بالشَّهادة، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أَي: المشركين؛ أَيْ: إنَّه إنما يُديل المشركين على المؤمنين لما ذُكر لا لأنَّه يحبُّهم"[(٦١)].

فالمحبة جاءت في هذه الآية منفية عن الظالمين، الذين ذمَّهم الله في كل موضع مِن كتابه، وكذلك رسولنا في سنته؛ ولذا فإن الله سبحانه حَرَّم الظلم على نفسه وجعله بيننا مُحرمًا.

ثانيًا: ارتباط الآية بسياق السورة:

١. أن المحبة الربانية لا تتعارض مع البلاء، والذي قد يكون سببًا لرفع الخطأ أو الذنب الذي يجلبه العبد لنفسه؛ ولذا فإن الله حرَّم الظلم على نفسه، قال ﷺ: "**يا عبادي إني حرمت الظلمَ على نفسي...**"[(٦٢)].

٢. أن الله ﷻ لا يحب الظالمين مِنَ المنافقين الذين انخنسوا عن المعركة، فلم يتحصل لهم شيءٌ مِنَ المكاسب الأخروية، وكذلك لا يحب الظالمين مِنَ الكفار وإن كان لهم النصر في الظاهر. "تنبيه لطيف الموقع جدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد، فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء؛ لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وَفَّق لها أولياءه وحزبه.

---

(٦١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (ص: ٢٣٤).

(٦٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، (٤/ ١٩٩٤) رقم (٢٥٧٧).

ثم ذكر حكمةً أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم مِنَ الذنوب، ومِنْ آفات النفوس، وأيضًا فإنه خلّصهم ومحّصهم مِنَ المنافقين فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص مِن نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم"[٦٣].

٣. أن وقع عدم المحبة مِنَ الله للظالمين هو صريح في الكراهية لأعداء الدين. يقول القنوجي: "﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ يعني: المشركين، جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لتقرير مضمون ما قبله، وقيل: هم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي، وقيل: هم المنافقون، والأول أولى، ونفي المحبة كناية عن البغض، وفي إيقاعه على الظالمين تعريضٌ بمحبته تعالى لمقابليهم"[٦٤].

٤. أن مِن محبة الله تعالى لعباده أن يذكرهم ببعض الثمرات والغايات التي يتحصل عليها العبد مِن تلك العثرات والملمات التي تحيط بهم؛ مِنْ هزيمة أو قتل أو نحوه مِنَ المصائب والجراحات. ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران:١٥٧]، وقال :﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢]. وغيرهما مِنَ الآيات التي كانت سببًا في زيادة إيمانهم.

هذه الآيات الأربع جاءت في سياق النفي للمحبة سواء كانت متعلقة بالله سبحانه أو بين البشر أنفسهم.

(٦٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية (٣/ ٢٠٠).

(٦٤) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، القنوجي (٢/ ٣٤١).

النتائج والتوصيات

أولًا: النتائج:

بعد هذه الرحلة والتطواف في أطياف هذه السورة والنظر في موضوعاتها، مِن خلال زاوية المحبة وأثره من خلال سورة «آل عمران»، وصل الباحث إلى بعض المستخلصات الهامة:

١- أن سورة «آل عمران» شملت أكثر عدد مِنَ الآيات القرآنية التي تحدثت عن المحبة بلفظها الصريح.

٢- أن سورة آل «عمران» شملت أنواعًا وتقاسيمَ مختلفةً من الحديث عن المحبة، سواءٌ كان باعتبار السياق في مقام النفي أو الإثبات، أو باعتبار المتعلق بالله تعالى أو بغيره، أو سواء كانت في أول الآية أو آخرها.

٣- أن الحديث عن المحبة هو نوعٌ مِنَ المقاصد الخفية التي اشتملت عليها السورة؛ إما في الظاهر أو الباطن، والمتأمل يُدرك أصولًا مثل هذا المقصد في مجريات السورة وموضوعاتها.

٤- أن المحبة الربانية تقوم على أوصاف ثابتة ومتنوعة، تزداد تلك المحبة بزيادة التعلق بالوصف المذكور؛ كـ: التوكل أو التقوى أو الإحسان ونحوها.

٥- أن المحبة الربانية غاية يطلبها كل سالك وعابد، وأن وسائلها تكون في المضرة والمصيبة كما تكون في السراء والرخاء.

٦- أن السورة تعرضت لقضية المحبة التي هي نابعة من التعظيم والإجلال، وهذا متناسب مع حال النصارى الذين يغلب عليهم جانب العاطفة والشفقة، فحديث القرآن عن المحبة هي بوابة من أبواب الدعوة لهؤلاء النصارى.

٧- أن السورة شملت أربع عشرة آية، كلها مختلفة في حديثها عن المحبة، وإن كان هناك تقارب في بعضها مِن جهة الموضوع.

ثانيًا: التوصيات:

٨. المحبة وأثرها في الدعوة القرآنية؛ الأنبياء أنموذجًا.

٩. المحبة وموضوعاتها في السور المكية.

١٠. المحبة وموضوعاتها في السور المدنية.

المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ط، د.ت.

٢. أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية، ط. المطبعة السلفية – القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

٣. أوضح التفاسير لابن الخطيب، ط. المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة السادسة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤ م.

٤. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، بتحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة، ١٣٩٣–١٤١٦هـ.

٥. التحرير والتنوير لابن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.

٦. تفسير التستري لسهل بن عبد الله التستري، جمعها أبو بكر محمد البلدي، بتحقيق محمد باسل عيون السود، ط، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.

٧. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (م.ح)، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٨. تفسير القرآن الكريم لابن قيم الجوزية، ط. دار ومكتبة الهلال – بيروت، ١٤١٠ هـ.

٩. تفسير القرآن للسمعاني، (م.ح)، ط. دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، (م.ح)، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١١. جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، (م.ح)، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م.

١٢. الحب في القرآن الكريم لغازي بن محمد الهاشمي، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر، ٢٠٠٩م.

١٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، (م.ح)، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
١٤. زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، (م.ح)، ط. دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.
١٥. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية – الكويت، الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.
١٦. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني، ط. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة الأولى.
١٧. سنن أبي داود، (م.ح)، ط. المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
١٨. سنن الترمذي، (م.ح)، ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م.
١٩. السيرة النبوية لابن هشام، (م.ح)، ط. شركة الطباعة الفنية المتحدة.
٢٠. صحيح البخاري، ط. دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٢١. صحيح مسلم، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢٢. فتحُ البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان، ط. المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا – بيروت، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.
٢٣. الكليات = معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي، (م.ح)، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، د.ت.
٢٤. لطائف الإشارات لفنون القراءات للقسطلاني، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٣٤هـ.
٢٥. مجمع الأمثال للميداني، (م.ح)، ط. دار المعرفة، بيروت – لبنان.
٢٦. محاسن التأويل للقاسمي، (م.ح)، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
٢٧. المحبة والكراهية في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية لإيمان عواد الشرافي، الجامعة الإسلامية بغزة، سنة النشر: ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م.

٢٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية، (م.ح)، ط. دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.
٢٩. مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، (م.ح)، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، ط. دار الكلم الطيب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م.
٣٠. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الحديث، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.
٣١. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، (م.ح)، ط. دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
٣٢. مفاتيح الغيب للرازي، ط. إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.
٣٣. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، (م.ح)، ط. دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.
٣٤. موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، أول موسوعة علمية محكمة لدراسة موضوعات القرآن الكريم، ٣٦ مجلدًا.
٣٥. النكت والعيون للماوردي، (م.ح)، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان.
٣٦. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي، (م.ح)، ط. دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

Romanization of sources

- Irshād al-ʻaql al-salīm ilá mazāyā al-Kitāb al-Karīm li-Abī al-Saʻūd, Ṭ. Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī-Bayrūt, D. Ṭ, D. t.
- Amrāḍ al-qulūb wa-shifā'uhā li-Ibn Taymīyah, Ṭ. al-Maṭbaʻah al-Salafīyah – al-Qāhirah, al-Ṭabʻah al-thāniyah 1399h.
- Awḍaḥ al-tafāsīr li-Ibn al-Khaṭīb, Ṭ. al-Maṭbaʻah al-Miṣrīyah wa-Maktabatuhā, al-Ṭabʻah al-sādisah 1383h / 1964 M.
- Baṣā'ir dhawī al-Tamyīz fī Laṭā'if al-Kitāb al-ʻAzīz llfyrwz'ābādy, bi-taḥqīq Muḥammad ʻAlī al-Najjār, al-Majlis al-Aʻlá lil-Shu'ūn al-Islāmīyah-Lajnat Iḥyā' al-Turāth al-Islāmī-al-Qāhirah, 1393-1416h.
- al-Taḥrīr wa-al-tanwīr li-Ibn ʻĀshūr, Ṭ. al-Dār al-Tūnisīyah lil-Nashr-Tūnis, 1984m.
- tafsīr al-Tustarī lshl ibn ʻAbd Allāh al-Tustarī, jamaʻahā Abū Bakr Muḥammad al-Baladī, bi-taḥqīq Muḥammad Bāsil ʻUyūn al-Sūd, Ṭ, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah – Bayrūt, al-Ṭabʻah al-ūlá 1423 H.
- tafsīr al-Qur'ān al-ʻAẓīm li-Ibn Kathīr, (M. Ḥ), Ṭ. Dār Ṭaybah lil-Nashr wa-al-Tawzīʻ, al-Ṭabʻah al-thāniyah 1420h / 1999M.
- tafsīr al-Qur'ān al-Karīm li-Ibn Qayyim al-Jawzīyah, Ṭ. Dār wa-Maktabat al-Hilāl-Bayrūt, 1410 H.
- tafsīr al-Qur'ān llsmʻāny, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-waṭan, al-Riyāḍ-al-Saʻūdīyah, al-Ṭabʻah al-ūlá 1418h / 1997m.
- Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī tafsīr kalām al-Mannān llsʻdy, (M. Ḥ), al-Nāshir : Mu'assasat al-Risālah, al-Ṭabʻah al-ūlá 1420h / 2000M.
- Jāmiʻ al-Bayān fī Ta'wīl al-Qur'ān llṭbry, (M. Ḥ), Ṭ. Mu'assasat al-Risālah, al-Ṭabʻah al-ūlá 1420 H / 2000 M.
- al-ḥubb fī al-Qur'ān al-Karīm li-Ghāzī ibn Muḥammad al-Hāshimī, Risālat duktūrāh, Jāmiʻat al-Azhar, al-Qāhirah, Miṣr, 2009M.
- Rūḥ al-maʻānī fī tafsīr al-Qur'ān al-ʻAẓīm wa-al-Sabʻ al-mathānī ll'lwsy, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah-Bayrūt, al-Ṭabʻah al-ūlá 1415h.
- Zād al-Musayyar fī ʻilm al-tafsīr li-Ibn al-Jawzī, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Kitāb al-ʻArabī-Bayrūt, al-Ṭabʻah al-ūlá 1422 H.
- Zād al-maʻād fī Hudá Khayr al-ʻibād li-Ibn Qayyim al-Jawzīyah, Ṭ. Mu'assasat al-Risālah, Bayrūt-Maktabat al-Manār al-Islāmīyah-al-Kuwayt, al-Ṭabʻah al-sābiʻah wa-al-ʻishrūn 1415h / 1994m.

- Silsilat al-aḥādīth al-ṣaḥīḥah wa-shay' min fiqhihā wa-fawā'iduhā lil-Albānī, Ṭ. Maktabat al-Ma'ārif lil-Nashr wa-al-Tawzī'-al-Riyāḍ, al-Ṭab'ah al-ūlá.
- Sunan Abī Dāwūd, (M. Ḥ), Ṭ. al-Maktabah al-'Aṣrīyah, Ṣaydā – Bayrūt.
- Sunan al-Tirmidhī, (M. Ḥ), Ṭ. Sharikat Maktabat wa-Maṭba'at Muṣṭafá al-Bābī al-Ḥalabī-Miṣr, al-Ṭab'ah al-thāniyah 1395 H / 1975 M.
- al-sīrah al-Nabawīyah li-Ibn Hishām, (M. Ḥ), Ṭ. Sharikat al-Ṭibā'ah al-fannīyah al-Muttaḥidah.
- Ṣaḥīḥ al-Bukhārī, Ṭ. Dār Ṭawq al-najāh, al-Ṭab'ah al-ūlá 1422h.
- Ṣaḥīḥ Muslim, Ṭ. Dār Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī – Bayrūt.
- ftḥu al-Bayān fī Maqāṣid al-Qur'ān li-Muḥammad Ṣiddīq Khān, Ṭ. al-Maktabah al-'Aṣrīyah lil-Ṭibā'ah wa-al-Nashr, Ṣaydā – Bayrūt, 1412 H / 1992 M.
- al-Kullīyāt = Mu'jam fī al-muṣṭalaḥāt wa-al-furūq al-lughawīyah llkfwy, (M. Ḥ), Ṭ. Mu'assasat al-Risālah, Bayrūt, D. Ṭ, D. t.
- Laṭā'if al-Ishārāt li-Funūn al-qirā'āt llqsṭlāny, al-Nāshir : Wizārat al-Shu'ūn al-Islāmīyah wa-al-Da'wah wa-al-Irshād, al-Sa'ūdīyah, Majma' al-Malik Fahd li-Ṭibā'at al-Muṣḥaf al-Sharīf, 1434h.
- Majma' al-amthāl lil-Maydānī, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Ma'rifah, Bayrūt-Lubnān.
- Maḥāsin al-ta'wīl lil-Qāsimī, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Kutub al-'Ilmīyah – Bayrūt, al-Ṭab'ah al-ūlá 1418h.
- al-Maḥabbah wālkrāhyh fī ḍaw' al-Qur'ān al-Karīm dirāsah mawḍū'īyah l'ymān 'Awwād al-Sharāfī, al-Jāmi'ah al-Islāmīyah bi-Ghazzah, sanat al-Nashr : 1435h-2014m.
- Madārij al-sālikīn bayna Manāzil Iyyāka na'budu wa-iyyāka nasta'īn li-Ibn Qayyim al-Jawzīyah, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Kitāb al-'Arabī-Bayrūt, al-Ṭab'ah al-thālithah 1416 H / 1996m.
- Madārik al-tanzīl wa-ḥaqā'iq al-ta'wīl llnsfy, (M. Ḥ), rāja'ahu wa-qaddama la-hu : Muḥyī al-Dīn Dīb Mastū, Ṭ. Dār al-Kalim al-Ṭayyib-Bayrūt, al-Ṭab'ah al-ūlá 1419 H / 1998 M.
- al-Mu'jam al-mufahras li-alfāẓ al-Qur'ān li-Muḥammad Fu'ād 'Abd al-Bāqī, Ṭ. Dār al-ḥadīth, al-Ṭab'ah al-thāniyah 1408h.
- Mu'jam Maqāyīs al-lughah li-Ibn Fāris, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Fikr, 1399h

/ 1979m.
- Mafātīḥ al-ghayb lil-Rāzī, Ṭ. Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī-Bayrūt, al-Ṭab‘ah al-thālithah 1420h.
- al-Mufradāt fī Gharīb al-Qur’ān llrāghb al-Aṣfahānī, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Qalam, al-Dār al-Shāmīyah – Dimashq, Bayrūt, al-Ṭab‘ah al-ūlá 1412 H.
- Mawsū‘at al-tafsīr al-mawḍū‘ī lil-Qur’ān al-Karīm, awwal Mawsū‘at ‘ilmīyah Maḥkamat li-Dirāsat mawḍū‘āt al-Qur’ān al-Karīm, 36 mjldan.
- al-Nukat wa-al-‘uyūn lil-Māwardī, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah-Bayrūt, Lubnān.
- al-Wajīz fī tafsīr al-Kitāb al-‘Azīz lil-Wāḥidī, (M. Ḥ), Ṭ. Dār al-Qalam, al-Dār al-Shāmīyah-Dimashq, Bayrūt, al-Ṭab‘ah al-ūlá 1415H.